مقالات تربوية

النموذج Paradigm والمنهجية Methodology والأساليب Methods في البحوث الاجتماعية والتربوية: المفاهيم والعلاقات

◙ إعداد: أ.د/ سامح جميل عبد الرحيم (رحمه الله)
أستاذ أصول التربية المتفرغ.. كلية التربية.. جامعة المنيا..

إجراء البحوث التربوية من الزاوية الاجتماعية – وهو ما أصبح تخصصًا راسخًا تحت مسمى علم اجتماع التربية Sociology of Education – خبرة شاقة تواجه الباحث المستجد والقديم بمشكلات كثيرة. فخبرة البحث ذاتها جديدة على الباحث المستجد، وهذه تمثل له مشكلة بذاتها. والمستجد والخبير القديم معًا يواجهان صعوبة اختيار براديم، ونموذج البحث والمنهجيات الملائمة للبراديم الذي يختاره والطرق والأساليب الملائمة له؛ والتي غالبًا ما تقدم له على أنها براديمات ومنهجيات متنافسة لا يمكن الجمع أو الخلط بينها[١]؛ مما يزيد المشكلة تعقيدًا.

أما لماذا يحتاج الباحث اختيار براديم ونموذج البحث والمنهجيات والطرق والأساليب الملائمة له، ولماذا تمثل مشكلة إذا لم يفعل ذلك؛ أو أخطأ في الفعل والاختيار، فهذا شيء كامن في طبيعة البحث وعمل الباحثين، فإذا كان البحث محاولة منهجية منظمة وسعي للوصول إلى حقائق جديدة وحل المشكلات في الميدان؛ فإن هذا السعي لاكتشاف الحقائق وحل المشكلات تكمن وراءه بالضرورة رؤية للباحث والظاهرة التي يدرسها، والأساليب الملائمة لدراستها. هكذا يجد الباحثون أنفسهم قبالة وفي مواجهة انتقاء البراديم، فالبراديم كما يعرفه "ويليس Willis" (٢٠٠٧) "هو نظام شامل من الاعتقاد Belief System ورؤية للعالم World View يمثل إطارًا يوجه البحث والممارسة في الميدان"[٢]. فإذا كان ما يوجه البحث ويكمن وراء كل خطوة يخطوها الباحث في بحثه هو البراديم Paradigm؛ فلا بد لأي باحث قبل أن يشرع في البحث أن يكون له ولديه براديم، فهو نموذج واسع للفهم، ووجهات نظر وقواعد Rules في كيفية النظر في المشكلات، وكيفية حلها، فهو تقليد للممارسة البحثية.

والنموذج أو البراديم Paradigm مصطلح شاع من استخدام "توماس كون Thomas Kuhn" له في كتابه بنية الثورات العلمية The Structure of Scientific Revolution (١٩٦٢)، وتم انتقاد "توماس كون" لاستخدامه المصطلح بحوالي (٢١) طريقة مختلفة، ومع ذلك فقد حاز المصطلح شعبية واسعة كوسيلة لوصف (من بين أمور أخرى) وجهات النظر المختلفة Various Points of View التي يأخذها الباحثون في بحثهم عن التفسيرات، فقد يستخدم مثلا براديم الصراع Conflict Paradigm الذي يرى أن النزاعات بين الأفراد والجماعات تكمن وراء العديد من التفاعلات الاجتماعية. وتشارك الكثير من النظريات الاجتماعية في هذه الرؤية، ومنها مثلا نظرية كارل ماركس. وفي المقابل فإن نموذج التبادل Exchange Model يرى أن معظم الحياة قائم على حسابات فردية للفوائد والتكاليف المترتبة على اتخاذ إجراء معين، سواء كان هذا الإجراء والفعل هو مجرد التحدث

إلى آخر غريب أو حتى الزواج. وهناك نموذج في صنع المعنى sense Making Model الذي يؤكد كيفية خلق الناس للمعنى والبنية الاجتماعية في حياتهم من خلال تفاعلاتهم مع الآخرين، وهكذا فإن النموذج (براديم) شيء أساسي لوصف سلوك البحث عن المعلومات؛ لأن النموذج يسلط الضوء على الروابط بين البحث ومقاصد ومعتقدات الباحث، فمن يستخدم نموذج الصراع سيختلف تناوله للبحث وخطواته وإجراءاته عمن يستخدم نموذج التبادل[٣]، وبالتالي فإن ما يختاره الباحث يجب أولا أن يتفق مع أهدافه ومعتقداته حتى لا يتناقض مع نفسه، ويجب أن يستخدم أساليب وأدوات تتمشى مع رؤيته حتى لا يقع في الخطأ، وهذا ما يثير مشكلات لدى الباحث الفرد، وما بين الباحثين في حالة النقاش، وقد انطلق كل منهم من براديم ورؤية مغايرة غير معلنة وغير واضحة.

ومفهوم البراديم العلمي Scientific Paradigm يمثل فرضية عامة للمعرفة العلمية بشكل مطلق في أي من المجالات العلمية، وبالتالي فهو نظام واسع من وجهات النظر والاتجاهات والنظريات المتعلقة بالتفسير العلمي للواقع الموضوعي. والبراديم العلمي في أوسع معانيه هو مجموعة حقائق وقناعات يتم تقديمها بشكل منهجي منظم Systematically، أي يقدم كنظرية وظيفتها بدء الإنتاج النظري والبحث العلمي في مجالات معينة، بحيث تكون مصدرًا لتكوينات نظرية مستقبلية أو موجودة فعلا[٤]. هنا يبدو شق البراديم المتعلق بالمنهجية Methodology وما يتبعها من مقاربات معينة Approaches وطرق Methods وأدوات Tools منسجمة متسقة معًا؛ تحقق افتراضات البراديم وتتمشى معه وتجيب عن قضايا أساسية، وبالتالي فالبراديم العلمي يعني نموذجًا أو مثالا Exemplar وشكلا أو قالبًا Model. والنموذج ليس واحدًا بل متعددًا، وهناك خلاف حول أنواع المنظورات Perspectives (وجهات النظر) أو الإجراءات Actions الأكثر ملاءمة عند إجراء البحوث التي تنطوي على المجتمع البشري، وهناك أسئلة كثيرة حول أهمية البحث والغرض منه وأخلاقيات البحث ومعناه، فهناك مثلا من يجادل بأن الناس (سلوكياتهم الملحوظة) يجب أن يكونوا موضوع دراستنا، ويقول آخرون: إننا يمكننا أن نكون أكثر موضوعية من خلال ملاحظة Observing ومراقبة آثار السلوك الإنساني فقط (مثل آثارهم أو تسجيلاتهم التي يتركونها وراءهم). بينما يقول آخرون: أنه لا يوجد شيء اسمه الموضوعية Objectivity ؛ لأن الباحث مرتبط ارتباطا شديدًا ووثيقا بموضوع دراسته، وأفضل ما يمكن أن يفعله هو جمع الروايات النصية Textualized Narratives أو الخطابات Discourses في مجال اهتمامنا. والأكثر إزعاجًا أن هناك خلافا واسعًا حول الأسس الفلسفية للبحث في السلوك الإنساني، كثيرًا ما يأخذ شكل ثنائية بسيطة، مثل: التفسير Explanation مقابل الفهم Understanding، أو الكمي Quantitative مقابل النوعي أو الكيفي Qualitative، أو الوصفي Positivist مقابل الطبيعي Naturalistic، أو التجريبية Empirical مقابل التفسيرية Interpretive، أو الذاتية Subjectivity مقابل الموضوعية Objectivity، وكلها لا بد أن تحسم باختيار ونموذج (براديم) للبحث وفقا له[٥]. فالبراديم يحاول أن يجيب عن أسئلة ويحسمها وفقا للافتراضات الفلسفية Philosophical Assumptions حول الظواهر التي ينبغي أن تدرس، وكيف يمكن فهمها ودراستها، وحول الغرض والنتيجة المناسبة للبحث، ومن تلك الأسئلة[٦]:

- هل يجب على البحث أن يهدف بالأساس إلى إنتاج المعرفة حول الممارسات والمؤسسات التربوية، أو يجب أن يصمم البحث بشكل مباشر لتحسين هذه الممارسات والمؤسسات؟

- هل يجب أن يكون محايدًا فى التوجه السياسي، أو يجب مثلاً أن يلتزم بتحدي التفاوتات Inequalities فيما يتعلق بالطبقة الاجتماعية، والنوع Gender، والتوجه الجنسي، والإعاقة، والعرق أو الجنس Ethnicity or Race، والعقيدة ... ؟
- هل يستطيع أن يشرح ما ينجح ويفلح في ضوء السياسة والممارسة، أو أنه محدود بتقديم تفاهمات واسعة بشأن الأفضل، لها استخدام غير مباشر لصانعي السياسة والممارسين وغيرهم؟
- هل يجب أن تكون عمليات ونواتج البحث تحت سيطرة باحثين مدربين بشكل خاص، أو يجب أن تتم بالمشاركة مع مشاركين في الموقف الذي يتم دراسته؟ وبشكل أكثر تحديد هل يجب أن يكون المشاركون في الموقف لهم سيطرة على البحث؟
- هل يجب أن يكون هناك محك للحكم على جودة البحث ؟ وما هو؟
- هل يمكننا تفسير الظواهر الاجتماعية أو أننا نصفها فقط؟ وإذا كان في مقدورنا تفسيرها هل نفعل ذلك عبر تقارير سببية Causal Accounts أم بواسطة تفسير المعاني التي تؤسسها؟

هذه بعض الأسئلة – في البحث – الأساسية التي كانت – ومازالت – تناقش على مدى واسع، ويتورط فيها العديد من المواقف والمناقشات المنهجية المختلفة، والتي يحسمها تحديد النموذج (البراديم) المناسب للبحث والباحث بأهدافه وأهداف بحثه وأدواته.

فإذا ما خصصنا كلمة علمي وحددنا ذلك التخصص العلمي بعلم الاجتماع ليصبح براديم اجتماعي Sociological Paradigm ، فإن البراديم الاجتماعي يمثل تصورًا أساسيًا للمجتمع (تعريف لمفهومه وبنيته وديناميكياته) مقبول من جانب علماء الاجتماع في فترة زمنية معينة[٧] . وكل علماء الاجتماع يتناولون مادتهم عبر افتراضات صريحة أو ضمنية بشأن طبيعة العالم الاجتماعي، وما إذا كان قائمًا على الصراع أم النظام والتكامل. فهناك من ينظرون إلى المجتمع على أنه قائم على النظام وبه توازن وتكامل، فيرونه على أنه بنية من العناصر ثابتة مستقرة متكاملة كل عنصر فيه يؤدي وظيفة تسهم في استقرار النظام، وكل وظيفة قائمة على التوافق بين أعضاء المجتمع. وهناك من ينظرون له على أنه قائم على الصراع فيرونه قابلا للتغير ويبدي صراعًا وعدم تكامل وعدم اتفاق، وكل عنصر فيه يسهم في إنتاج عدم التكامل والتغير، والمجتمع بكامله قائم في إكراه البعض للآخرين[٨] . هكذا أيضًا يجد الباحث نفسه مضطربًا بين هذه البراديمات بما لها من رؤى في المجتمع والظاهرة الاجتماعية حتى يجيد القيام ببحثه ويجيد عمله.

◙ مكونات البراديم:

كما قيل من قبل "توماس كون Thomas Kuhn" هو أول من استخدم مصطلح البراديم، وعرفه بأنه: مجموعة متكاملة من المفاهيم الأساسية والمتغيرات والمشكلات المرتبطة بمقاربات منهجية وأدوات منسجمة معها. وعرفه "جوبا ولينكولين Guba and Lincoln" بأنه: نظام أساسي أو رؤية عالمية توجه الباحث، وقبله اعتبر "تشالمر Chalmer" أن البراديم مصنوع من افتراضات نظرية عامة، وقوانين نظرية عامة، وأساليب أو تقنيات Techniques لتطبيقها لدى أعضاء مجتمع علمي خاص يتبنونها ويعترفون بها[٩] .

والبراديم يتكون من أربعة أجزاء: الانطولوجي (النظرة الوجودية) Ontology والابستمولوجي (نظرية المعرفة) Epistemology، والمبثودولوجي أو المنهجية

Methodology وما يتبعها من طرق Methods، ويصاحب الانطولوجي والابستمولوجي المكون الرابع المتعلق بالطبيعة الإنسانية Hunan Nature[١٠].

الانطولوجي يهتم بطبيعة الوجود أو الحقيقة The Nature of Reality وتحديد طبيعة الوجود أو الحقيقة هو الخطوة الأولى في أي نشاط بحثي، وهي خطوة يجب أن تكون موجهة نحو فهم طبيعة الظاهرة محل البحث، فهي قضية أساسية تقع في قلب البحث الاجتماعي. فهل الحقيقة توجد في الخارج Out There أم أنها نتاج العقل الإنساني؟ وإجابة هذا السؤال تعتمد على الموقف ووجهة النظر الانطولوجية التي يتم تبنيها[١١]. وهنا نجد من يرى أن العالم الاجتماعي خارج عن حسٍّ وإدراك الفرد وما نعرفه مجرد أسماء ومفاهيم وعلامات نستخدمها في بناء الواقع، وهو موقف يطلق عليه (الموقف الاسمائي أو الاسمي The Nominal Position وهو موقف لا يعترف بوجود أي بنية حقيقية للعالم أو عالم مادي نعطيه أسماء ومفاهيم لوصفه. والأسماء المستخدمة تعتبر ابتكارات صناعية فائدتها قائمة على ملاءمتها كأدوات لوصف العالم الخارجي وفهمه والتفاوض بشأنه. وفي مقابل هؤلاء هناك الواقعيون الذين يرون أن العالم الخارجي موجود خارج عقل الفرد، وهو عالم حقيقي يتكون من هياكل صلبة وملموسة وغير قابلة للتغيير نسبيًّا. وسواء كنا نسمي هذه الهياكل أو ندركها فهي موجودة ككيانات تجريبية، موجودة وجود حقيقي، وقد لا نكون مدركين لوجود بعض الهياكل، وبالتالي لا يكون لدينا أسماء أو مفاهيم لتوضيحها، ومع ذلك فهي موجودة. هكذا عند الواقعيين العالم الاجتماعي موجود بشكل مستقل عن إدراك الإنسان له، والفرد يولد ويعيش داخل هذا العالم الاجتماعي الذي يتصف بأن له حقيقة خاصة به، فهو ليس شيئًا يخلقه الفرد – إنه موجود في الخارج Out-There – نظريًّا – قبل وجود أي وعي إنساني، فبالنسبة للواقعي العالم الاجتماعي له وجود صلب ومتماسك كعالم طبيعي[١٢].

أما الموقف الابستمولوجي فيشير إلى العمليات التي بواسطتها يحصل الفرد على المعرفة ويوصل معرفته للآخرين. والعلماء الطبيعيون يتبنون الابستمولوجيا الوضعية Positivist Epistemology ويفترضون أن المعرفة موضوعية، وبالتالي يمكن أن تنقل من فرد إلى فرد. يقابلها فريق يرى العكس ويدعي أن المعرفة ذاتية بالضرورة، وأن العالم يمكن أن يفهم فقط بالعودة إلى أبنية إدراكية Cognitive Constructs موجودة لدى الأفراد[١٣]. الموقف الوضعي من الناحية الابستمولوجية يسعى إلى شرح وتفسير والتنبؤ بما يحدث في العالم الاجتماعي بواسطة البحث عن الانتظامات Regularities وعلاقات سببية Causal Relationships بين العناصر المؤسسة لهذا العالم الاجتماعي. والابستمولوجيا الوضعية في جوهرها قائمة على المقاربات التقليدية السائدة في العلوم الطبيعية مع اختلاف بسيط بينها في التفصيلات، فهناك من يرى الفروض يمكن اختبارها بالتجربة المناسبة. بينما يصر فريق منهم على أن الفروض يمكن فقط أن تدحض Falsified ولا يمكن إثباتها أو تقرير أنها صحيحة True لكنهما معًا يقبلون بأن نمو المعرفة هو عملية تراكمية بالضرورة Accumulative Process فيها الاستبصارات الجديدة تضاف إلى مخزون المعرفة الموجودة والفروض الخاطئة تستبعد وتحذف. أما معارضو الوضعية فجميعهم يقفون معارضين أي جدوى للبحث عن قوانين كامنة في عالم الشئون الاجتماعية، فعندهم أن العالم الاجتماعي عالم نسبي يمكن أن يفهم فقط من وجهة نظر الأفراد المنغمسين بشكل مباشر في الأنشطة الإنسانية التي يجب أن تدرس، ويرفضون جميعهم وجهة نظر الملاحظ

Observer حيث إنه لا يمكن للمرء عندهم أن يفهم إلا إذا تبنى الإطار المرجعي Frame of Reference للمشارك في الفعل. فالمرء يجب أن يفهم من الداخل وليس من الخارج، وبالتالي فإن العلوم الاجتماعية هي بالضرورة علوم ذاتية وليست موضوعية، ويرفضون القول بأن العلم يمكن أن يولد أية معرفة موضوعية من أي نوع أو شكل[١٤].

أما الموقف من الطبيعة الإنسانية فيدور الجدل فيه حول نموذج الإنسان الذي ينعكس في أية نظرية اجتماعية، فهناك طرف يتخذ موقفا حتميًا ونظرة حتمية Determinist View تعتبر الإنسان وأنشطته محددة بشكل كامل بواسطة الموقف Situation أو البيئة Environment التي يوجد فيها. والطرف المقابل يتخذ النظرة الطوعية Voluntariot View التي ترى أن الإنسان مستقل تمامًا Completely Autonomous حر الإرادة Free-Willed. وبقدر اهتمام النظرية الاجتماعية بفهم الأنشطة الإنسانية، فإنها يجب أن تميل ضمنا أو صراحة لأحد وجهتي النظر أو تتبنى موقفا وسطا يسمح بتأثير كل من العوامل الموقفية والطوعية في تقدير أنشطة الإنسان، وهو أمر مهم لأية نظرية اجتماعية تتحدث عن طبيعة العلاقات بين الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه[١٥].

أما الموقف من المنهجية Methodology فهناك من يرون أنه لا يمكن فهم العالم الاجتماعي إلا من خلال الحصول على معرفة مباشرة First Hand Knowledge بالموضوع قيد البحث، وبالتالي يؤكد اقتراب الباحث من موضوع دراسته واستكشاف خلفيته التفصيلية وتاريخ حياته. وتؤكد تلك المقاربة على التقارير الذاتية Subjective Accounts التي يولدها الباحث بالدخول إلى الداخل إلى قلب مادته البحثية وإشراك نفسه في التدفق اليومي للحياة والتحليل المفصل للرؤى التى تولدها تلك المواجهات مع موضوع دراسته والرؤى التى كشفت عنها التقارير الانطباعية Impressionist Accounts في المذكرات والسير الذاتية Diaries, Biographies والسجلات الصحفية Journalistic Records والرؤية المقابلة تتجسد في المقاربات والطرق المطبقة في العلوم الطبيعية، والتي تركز على عملية اختبار الفروض ومعايير الدقة العلمية ومشغولة ببناء الاختبارات العلمية Scientific Tests واستخدام التقنيات الكمية Quantitative Techniques وتحليل البيانات، وتعتبر المسوح Survey والاستبانات Questionnaires واختبارات الشخصية Personality Tests وأدوات البحث القياسية Standardized Research Instruments بجميع أنواعها كلها – تعتبر – من الأدوات التي تستعين بها وتستخدمها[١٦].

هكذا بعد أن تعرَّفنا مكونات البراديم نصل إلى استنتاج أن البحث الاجتماعي وفق أي براديم لا بد أن يتضمن منهجيته وطريقته لاعتباره مجالا علميًا بحثيًا، ولا بد أن يتضمن بشكل خاص رؤية للفرد والمجتمع بنيته ووظائفه باعتباره مجالا علميًا يبحث بشكل خاص في الظاهرة الاجتماعية والمجتمع.

المراجع

1-Abderrazak Dammak, Research Paradigms: Methodologies and Compatible Methods, Veritas 6.2 (2015), p. 1, https://pdfs.semanticscholar.org/2336/000d567aa0e4fbd31d06020fc5b9e3bc7c01.pdf?_ga=2.47854626.423139368.1576697994-1199591655.1576697994

2-Peter Charles Sinclair Taylor& Milton Norman Dejadena Medina, Educational research paradigms: From positivism to multiparadigmatic, Meaning Centered Education, January, 2013, p1
https://www.researchgate.net/publication/264196558_Educational_research_paradigms_From_positivism_to_multiparadigmatic/link/5b518e25a6fdcc8dae2fa55e/download
3-7. Perspectives, Paradigms, and Theories, p 144.
https://is.muni.cz/el/1421/jaro2015/VIKMA08/um/55240391/CASE_Looking_for_information_7.pdf
4-Petar Hafner, Theories and Paradigms in Sociology, Philesopluy and Sociology, Facta universitatis-series, Vol.1, No.5, 1998, p. 458.
http://facta.junis.ni.ac.rs/pas/pas98/pas98-04.pdf
5-I Perspective, Paradigms and Theories, Op. Cit., p.143.
6-Martyn Hammersley, Methodological Paradigms in Educational Research, British Educational Research Association on- Line Resource(BERA), September, 2012, p. 2.
https://martynhammersley.files.wordpress.com/2013/11/methodological-paradigms-4.pdf
7-Peter Hafner, Op. Cit., p.458.
8-Gibson Burrell & Gareth Morgan, Sociological Paradigms and Organizational Analysis, Elements of the Socidogy of Corporate Life, Burlington: Ashgate Publishing Limited, USA, 2005, pp.10-16.
http://openstorage.gunadarma.ac.id/linux/docs/v06/Kuliah/Seminar-MIS/2006/165/165-08-Social_Paradigm.pdf
9-Sayyed Rashid shah& Abdullah Al-Bargi, Research Paradigms: Researchs ' Worldviews, Theoretical Frameworks and Study Designs, Arab World English Journal, International peer reviewed journal, Vol.4, No.4, 2013, p.253.
https://awej.org/images/AllIssues/Volume4/Volume4Number4Dec2013/15.pdf
10-Gibson Hafner, Barrel, Gareth Morgan, Op. Cit., pp.1-2.
11-S. D. Green, Sociological Paradigms and Building Procurement,
12-Ibid., p.
13-Gibson Hafner, Barrel, Gareth Morgan, Op. Cit., p.4.
14-S. D. Green, Sociological Paradigms and Building Procurement, CIB Report, 1994, p. 89.
https://www.irbnet.de/daten/iconda/CIB12577.pdf
15-Gibson Hafner, Barrel, Gareth Morgan, Op. Cit., p.5.
16-P. 90.في توثيق ١٢ الصفحة (٩٠) نفس المرجع السابق
Ibid., p. 90.